الإمام مالك بن أنس الأصبحي
وبعض ملامح منهجه التربوي والتعليمي

د. عبد الرحمن فراج

جامعة بني سويف — مصر

الملخص

الإمام مالك بن أنس –رحمه الله– نموذج للعالم الفذ، وقد برع في علمي الحديث والفقه، حتى عدَّه أهل الحديث محدثًا، وعده أهل الفقه فقيهًا، ولا شك أن شخصية مثل هذه، لا بد أن يكون لها أثرها الديني والاجتماعي والسياسي والتربوي والتعليمي، في عصرها وفيما بعد ذلك من أجيال، وكثيرة هي المؤشرات الدالة على أن الإمام مالكًا يعد إحدى الشخصيات العلمية البارزة في الحقل التربوي الإسلامي، وإذا كانت المدرسة المالكية بصفة عامة قد تركت بصماتها في حركة الفكر التربوي، فإن ذلك يعود بداية إلى الإمام مالك الذي وضع بعضًا من أسس التعلم والتعليم، وكأنها دستور التربية الإسلامية في صورتها التنفيذية، لما رسمه القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ، وأحد أبرز الأدلة على ذلك، تلاميذه الذين كانوا من الكثرة بمكان، ويشهد على ذلك مجلسه العلمي الذي كان يغص بالطلاب، وتهدف هذه الدراسة، التي تعتمد على إحدى أدوات المنهج الوصفي التحليلي، وهو التحليل الوثائقي، إلى محاولة الكشف عن بعض ملامح منهج الإمام مالك التربوي والتعليمي، وقد توصلت الدراسة –بعد استعراض حالة التربية والتعليم في عصره وقبل عصره، ودور أسرته في تكوينه العلمي– إلى أنه كانت هناك مجموعة من القيم والمبادئ التربوية التي استند إليها رحمه الله؛ تمثلت في الإخلاص، والأدب، وتعظيم السنّة المشرفة، وملازمة العلماء، والصبر على البلاء، والاعتزاز بالعلم، وكانت للإمام منهجية واضحة شكلت مسيرته العلمية، منها حرصه على أخذ العلم عن العلماء الثقات، ومراعاة الدليل، وعدم التعصب للرأي الشخصي، والتحرز الشديد في الفتوى

والتصدي لها عن علم وثيق، والتثبت والتحري في فتاويه، والحرص على نشر العلم وعدم كتمانه، والاهتمام بالفقه العملي، والنكير على أهل البدع والأهواء، والإنصاف ومراعاة الخلاف، ولم يترك الإمام -رحمه الله- وسيلة تعليمية متاحة في عصره إلا واتخذها سبيلا لنشر علمه، من مجالسه العلمية الشهيرة التي تربى وتعلم فيها آلاف التلاميذ، والمناظرات المباشرة مع بعض العلماء، والمراسلات العلمية التي أدت الضرورة إليها عند صعوبة التلاقي المباشر، والتأليف والكتابة التي نقلت إلينا أحد أهم الكتب الفقهية والحديثية في تاريخ الإسلام.

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد، فلعل الأثر الحضاري لهذه الأمة المعطاء، يتضح أكثر ما يتضح في تربية أفرادها تربية إيمانية ونفسية وعقلية وعلمية، فضلا عن التربية المجتمعية، بربط أفراد المجتمع برباط الأخلاق والعقيدة الإسلامية القويمة، وكثيرة هي الإشارات الدالة على أن علماء الأمة، كانوا عادة ما يهتمون بتربية الناس وإيقاظ شعورهم، ونفخ روح الإيمان في جنبات المجتمع، وإحياء روح الأمل في الأمة، وزرع الثقة في نفوس أبنائها.

وكثيرة هي التجارب الإيجابية التي يمكن الوقوف عليها في تراثنا التربوي التليد، ممثلة في علماء الأمة الأفذاذ، وعلى رأسهم الإمام مالك رحمه الله[1]، وعديدة هي الألقاب التي أطلقت على الإمام مالك، منها شيخ الإسلام، وحجة الأمة، وإمام دار الهجرة، ومفتي الحجاز، وفقيه الأمة، وسيد الأئمة... وغيرها، ويعد الإمام ثاني أئمة المسلمين السّنة الأربعة الذين أجمع على إمامتهم أهل السنّة بجميع توجهاتهم، ولا شك أن شخصية مثل

(1) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن الحارث، الأصبحي؛ كنيته: أبو عبد الله وأمه هي: عالية بنت شريكٍ الأزدية. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/ 48-49، وقد وُلد على الأغلب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. انظر: ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء 10-12.

هذه، لا بد أن يكون لها أثرها الديني والاجتماعي والتربوي، في عصرها وفيما بعد ذلك من عصور.

وتتناول هذه الدراسة الإمام مالكًا –رحمه الله– أنموذجًا من نماذج التربية الإسلامية الأصيلة، وتحاول التعرف على بعض ملامح منهجيه التربوي والتعليمي، وبالرغم من أن الإمام لم يُصنف عملا تربويًّا مباشرًا، فإن مقولاته وحياته نفسها تعد نبراسًا مضيئًا، يشع بالتوجيهات التربوية بعيدة الأثر، وتدل سيرة حياته على أنه لم يكتف بالإمامة في الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية والدينية، بل مزج بين هذه العلوم وبين العلوم التربوية والاجتماعية (بل إنه جعل السلوك التربوي أساسًا في تلقي العلوم الشرعية)، واستخدم بنفسه معظم أساليب التربية والتعليم السائدة في عصره.

وهكذا ترمي هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عما في التراث الإسلامي من مضامين تربوية، يحتاج إليها المجتمع والمختصون والمربون والمتعلمون، وذلك في ضوء أقوال الإمام مالك وأعماله وسيرته –رحمه الله– وتتناول الدراسة في ذلك تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام، وحالة العلم والتعليم في عصره، ودور الأسرة في تكوينه العلمي، والقيم والمبادئ التربوية التي استند إليها، والأسس المنهجية التي شكلت شخصيته العلمية، والأساليب التعليمية التي استخدمها لإيصال علمه وأفكاره، وأخيرًا نتائج الدراسة وتوصياتها على صعيد التربية والإعلام والتخطيط والتوجيه.

وإذا كان المنهج الوصفي التحليلي هو الذي يقوم بدراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع، ووصفها وتحليل خصائصها[1]، فإن هذه الدراسة تعتمد على أحد أبرز أدوات هذا المنهج، وهو التحليل الوثائقي الذي ينبني بصفة خاصة على تحليل النصوص

(1) ذوقان عبيدات، وآخرون، البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه 187.

وأدبيات البحث، وقد قمنا هنا بوصف وتحليل لكم كبير من النصوص التراثية، فضلا عن الأعمال المعاصرة التي تناولت حياة الإمام مالك وسيرته بصفة عامة، أو تلك التي تناولت جانبًا من جوانب حياته التربوية أو التعليمية.

وتنبع أهمية هذه الدراسة من أهمية العملية التربوية نفسها، والتي نحن أحوج ما نكون في هذا العصر المضطرب إلى تلمس أسسها الإسلامية الأصيلة كما تتبدى في أعمال وأقوال أعلام الأمة الأفذاذ، وبالرغم من أن التربية عملية تراكمية متطورة، فإن لها أصولها الثابتة في تراث الأمة، مما يستدعي البحث والتنقيب في تراثنا الإسلامي، ومحاولة التوصل إلى الأسس التربوية الكامنة فيه، وإلى إحيائها ونشرها في عصرنا هذا بين جموع المربين والمتعلمين، والحقيقة أنه إذا كان فقه أي إمام (وهو مجموع ما استنبطه وارتآه من أحكام فقهية) ميدان اقتداء للخاصة والعامة معًا، فإن نهجه التعليمي والتربوي مجال اهتداء بصفة خاصة لهؤلاء المربين والمتعلمين، وهم الصفوة والنخبة في أي أمة.

ويزيد من أهمية هذه الدراسة، قلة الدراسات الاجتماعية والتربوية التي تناولت حياة الإمام مالك -رحمه الله- مقارنة بطبيعة الحال بالدراسات الشرعية الفقهية والحديثية، ونرى أن الوضع الحالي للأمة الإسلامية يستلزم – بل إنه واجب الوقت – تمهيد السبيل لتلك المجالات، وتكثيف البحث العلمي فيها، واستنباط الدروس المستفادة منها، والإفادة من ذلك في علاج المشكلات التي تعاني منها أمتنا في الوقت الحاضر، وما أكثرها وأعمقها!

تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام مالك

تؤكد آيات بينات وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، فضلًا عن الأحاديث النبوية الشريفة، على أن الإسلام دين العلم والتعلم، وأنه حث على تحصيل العلم بشتى صنوفه وأنواعه، وتكفي الإشارة هنا إلى أن أول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن، آيات بينات حثت على القراءة التي هي أساس العلم والتعليم، وكما هو معلوم، لم

يقتصر الحث في ديننا الحنيف على تعلم العلوم الدينية فحسب، بل امتد إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية والتقنية، في محاولة لإعطاء تكاملية مشروعة للشخصية العربية الإسلامية.

وقد بدأت التربية الإسلامية على عهد الرسول الكريم ﷺ وكانت التربية السلوكية وتثبيت العقيدة الإسلامية في النفوس مقدمة على المعرفة، من حيث الأهمية ومن حيث الترتيب الزمني، يدلنا على ذلك –مثلا– حديث جندب بن عبد الله: «كنَّا معَ النَّبيِّ ﷺ ونحنُ فتيانٌ حزاورةٌ، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعلَّمَ القرآنَ، ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ، فازددنا بِه إيمانًا»[1].

وحرص النبي المشرّف ﷺ إلى نشر هذا الدين عن طريق البعثات التعليمية، فكان الرسولﷺ يَعلم أهمية العلم والتعليم في تغيير سلوك القبائل المعتنقة للإسلام، فكان يرسل من يعلمهم، فقام صلوات الله وسلامه عليه بإيفاد بعض الصحابة إلى المدن والأمصار، فبعث معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري –رضي الله عنهما– إلى اليمن ليعلما أهلها القرآن الكريم، كما أرسل مصعب بن عمير معلمًا إلى المدينة المنورة قبل الهجرة بعامين، لكي يعلم أهلها القرآن الكريم، وشعائر الدين الجديد[2].

وأدت بعوث المعلمين هذه دورًا كبيرًا في مجال الدعوة ونشر الإسلام وتعليم المسلمين، كما لا ننسى أن الوفود التي قدِمت إلى المدينة المنورة في العهد النبوي، كانت أحد المنافذ الأساسية للدعوة والتعليم في عهده صلوات الله وسلامه عليه.

ويعد بناء مسجد قباء أول عملٍ قام به الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ثم تلاه المسجد النبوي الذي توالت الحلقات العلمية في أفنيته، فكان مسجده ﷺ جامعة

(1) صحيح سنن ابن ماجه، رقم 52.

(2) محمد بن مغرم الشهراني، الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس 125.

المسلمين الكبرى، ومركز الدعوة إلى الله، وكانت وسيلة التعليم السائدة آنذاك، هي القراءة والإملاء، فكان الرسول ﷺ يقرأ القرآن على صحابته، وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يكتب الوحي، والرسول ﷺ يملي عليه، وهكذا كانت فئة القراء أوائل المعلمين في تاريخ الإسلام، وكانت المساجد هي أول المدارس.

واستمر الخلفاء الراشدون، والصحابة، والتابعون، من حيث اهتمامهم بالعلم وبيان مكانة العلماء، والعناية بالتعليم في محتواه ومؤسساته وطرقه ورعاية المنتسبين إليه من متعلمين ومعلمين[1].

من ناحية أخرى، تطورت المفاهيم التربوية والتعليمية بتطوّر ظروف المجتمع، فمثلا، حث عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان -رضي الله عنهما- على تدبر القرآن الكريم ومنع كتابة الحديث؛ لئلا يختلط القرآن بالحديث، فيما تلاشى الخوف من ذلك في عصر الدولة الأموية، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى كبار العلماء بنشر الحديث وتعليمه، كما نلاحظ أنه في ذلك العصر أيضًا بدأ الاهتمام باللغة، بسبب ظهور اللحن بين الموالي وخوف المسلمين من امتداد هذا اللحن إلى القرآن الكريم.

وكانت أساليب التعليم في الصدر الأول، تؤكد على استمرارية التعليم في المجتمع، وكان استمرار طلب العلم صفة غالبة على كل من انتسب لميدان العلم، وكان المعلمون في القرن الأوّل يتبعون ثلاث طرق في التعليم: هي الرواية، والمذاكرة، والسؤال، واتصلت هذه العملية التعليمية بأسلوب السماع؛ لأن العالم كان يلقي علومه، بينما يسمعها الطلبة ويحفظونها، كذلك قامت العملية التعليمية على الدعوة للانفتاح وتقبل الاختلاف في الآراء، إذ غاية المؤمن هي العلم، فكلما أصاب من العلم شيئًا حواه وطلب غيره، مما مهد الطريق للوقوف على تراث الأمم الأخرى ومحاولة الإفادة منه[2].

(1) عبد القوي عبد الغني محمد، الجوانب التربوية في حياة الخلفاء الراشدين 6.

(2) فوزية عثمان الغامدي، التربية الإسلامية في عصر صدر الإسلام 495.

من ناحية أخرى، اتضحت في صدر الإسلام مجالات التربية المختلفة، العقلية والعقدية والنفسية والاجتماعية والخلقية، مما نتج عنه تلك النفوس العظيمة والهمم العالية والشموس المشرقة من علماء الإسلام الذين نشروا العلم في مشارق الأرض ومغاربها.

حال العلم والمتعلمين في زمن الإمام مالك

كانت ولادة الإمام مالك في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، وكانت وفاته في عهد الرشيد العباسي، فعاصر دولة بني مروان في عنفوان شبابها، وشاهد تداعي الدولة الأموية، وقيام دولة بني العباس على أنقاضها، وتمثل حياة الإمام في العهد الأموي فترة تكوين عقله وتفكيره وآرائه خلال أربعين سنة، وتمثل حياته بعد أن بلغ أشده في العصر العباسي فترة نتاجه، والاستفادة من علمه، وتبادل ثمرات الفكر مع الصحاب وتكوين التلاميذ.

وقد نشأ الإمام في المدينة النبوية، ولا شك أن المدينة كانت أهم مدينة إسلامية آنذاك، فهي مقصد هجرة النبي ﷺ وموطن العلم والشرع، ومعقل الحكم الإسلامي، والمكان الذي شهد تأسيس البنية الأساس للأمة ودولة الإسلام وخلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومجمع بقية الصحابة الكرام، ومقام الكثير من التابعين، ومنها كان يصدر العلم والفتوى من الفقهاء السبعة فقهاء المدينة المشهورين، وكانت المدينة تموج بالعلماء البارزين المقيمين فيها والوافدين إليها من رحلات الحج خاصة[1].

ومن سمات هذا العصر تزايد أعداد حملة العلم، لاسيما في المدن الإسلامية الكبرى كمكة والمدينة، حيث كان طلب العلم الشرعي من أهم الأعمال التي أقبلت عليها الأسر المسلمة، وعلى سبيل المثال، كان بالمدينة في زمن مالك من التابعين عدد وجد فيهم مالك الناشئ المعين الذي لا ينضب، والمنهل العذب الذي لا شائبة فيه، لذلك وجدنا

(1) سعيد إسماعيل علي، إسهام المدرسة المالكية في الفكر التربوي 89.

عدد من شاورهم الإمام مالك، قبل الجلوس للإفتاء، من علماء المدينة فقط سبعون عالمًا. أخرج أبو نعيم: عن أبي مصعب، قال: سمعت مالكًا يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك[1]، فإذا وضعنا في الاعتبار شروط من يستحق أن يوصف بالعالم لدى الإمام مالك، يمكننا تصور عدد الذين كانوا يتصدون للتدريس والإفتاء في المدينة فقط، من غير من عدّهم الإمام مالك[2].

وهكذا نشأ الإمام مالك في بيئة محاطة بالعلم، وفي هذا المناخ العلمي والثقافي المتميز عاش وأخذ العلم والحديث عن عدد كبير من أجلّة العلماء، ولا شك أن هذه البيئة الخصبة من الأسباب التي كونت شخصيته العلمية.

وكان العلم في زمن الإمام مالك يؤخذ بالتلقي المباشر من ينابيعه المتمثلة في كبار العلماء، مما كان له أثره في التفاعل بين المعلمين والمتعلمين، ومن ثم تعزيز موضوع التعلم فيما يرى علماء التربية المعاصرة، وإن كان قد بدأ في تلك الفترة مباشرة تدوين العلم، وهو ما كان على يد مالك نفسه وغيره من الأئمة والعلماء.

ومن الناحية الاجتماعية، ساد الترابط الاجتماعي بين العلماء في ذلك العصر، وكانت هناك المراسلات واللقاءات المباشرة والزيارات المتبادلة بينهم، ومن الناحية الثقافية كانت الساحة تموج بالعلم والأدب، وكان الناس محبين للعلم، فكانوا يتزاحمون —مثلا— على مجلس مالك، وكان الأمراء يقدمون العطايا للعلماء تشجيعًا ودعمًا لهم[3].

ولا يفوتنا هنا التنويه باتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك العصر، من الأندلس غربًا إلى السند شرقًا، بمدنها الزاخرة بالحركة العلمية والنشاط التجاري والنهضة الزراعية والصناعية، ولهذا أثره الكبير في حيوية العلم وازدهاره، والفقه منه بصفة خاصة، وذلك

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 316/6.

(2) نور الدين لبجيري، وسارة قريمس، الإمام مالك ومنهجه في الدعوة والإرشاد 335.

(3) مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة 84.

لتفاعل الحضارات المختلفة من أجناس متباينة صهرها الإسلام في بوتقته، فكثرت الأحداث، وتفرعت المسائل واستنبط العلماء لكل مسألة حكمًا[1].

وإضافة إلى انتشار العلم الشرعي في كل ربوع الإسلام من خلال اضطلاع عدد كبير من علماء الإسلام بمهمة نشره وتبليغه وتدوينه، فقد برز نشاط علمي كبير في كثير من التخصصات المعرفية الأخرى، مثل الفلك والرياضيات والطب، وقد أسهم الإمام مالك في هذا النشاط بتأليفه لكتاب في "النجوم وحساب مدار الزمن ومنازل القمر"[2]، والذي قال عنه القاضي عياض: «وهو كتاب جيد، مفيد جدًّا، قد اعتمد الناس عليه في هذا الباب وجعلوه أصلا»[3]، كما اشتد الجدل العقدي في زمنه ونشأت الفرق الكلامية، ووقف مالك من هذه الفرق موقفًا شديدًا، ورفض أن يُستدرج إلى المعارك الكلامية، بل رأيناه يؤلف كتبًا ورسائل في الرد على هذه الفرق، وفي تصويب أخطائها، ومن ذلك رسالته لابن وهب في القدر والرد على القدرية[4]، والتي قال عنها القاضي عياض: «وهو من خيار الكتب في هذا الباب، الدالة على سعة علمه بهذا الشأن، رحمه الله، وقد حدثنا بها غير واحد من شيوخنا بأسانيدهم المتصلة إلى مالك رحمه الله»[5].

دور الأسرة في التكوين العلمي للإمام مالك

تضافرت البيئة العامة (المدينة) مع البيئة الخاصة (الأسرة) في إنجاح الإمام مالك وبلوغه ما كان يصبو إليه وبناء شخصيته العلمية، وكما هو معلوم، توضع الأسرة في المقام

(1) مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي 282- 283.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء 88/8.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك 1، 204-205.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء 88/8.

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك 204/1.

الأول من حيث قوة التأثير والقدرة على التشكيل والتربية والتنشئة، حيث تمثل البيئة الأسرية مقومًا مهمًّا من مقومات نمو الشخصية وتطورها.

ولحسن الطالع، كان مالك من أسرة عظيمة من أصحاب العلم وأرباب الفضل، لهم مع العلم صلات ووشائج، ومع الفضل روابط وأسباب[1]، فقد تربى مالك رحمه الله ونشأ في بيئة أسرية عرفت باشتغالها بالعلم، فجده الأعلى أبو عامر بن عمرو صحابي جليل شهد المغازي كلها إلا بدرًا، وابنه مالك -جد الإمام مالك- من كبار علماء التابعين في المدينة، روى عن طائفة من الصحابة، مثل عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والسيدة عائشة رضي الله عنهم، وأبوه أنس من رواة الحديث، غير أنه لم يكن من المكثرين[2]، وأخوه النضر من طلبة العلم المعروفين، كان يلازم العلماء، ويأخذ عنهم، وقد تفوق في دراسته واشتهر حتى إن الإمام مالكًا كان ينادى بأخي النضر، أما أعمامه، فقد روي عنهم اشتغالهم بالعلم، لا سيما عمه نافع كان « محدثا ثقة»[3].

وقد أسهمت أم مالك بن أنس، بصفة خاصة، في تكوينه العلمي[4]، حيث كانت فقيهة عارفة بخيار أهل العلم في المدينة المنورة، وكانت تقدر العلم وأهله، ولذلك أرشدت ابنها إلى مجالس العلم، ورسمت له منهجا قويمًا وأساسًا ركيزًا في القيم والآداب، حينما وجهته بأن يتأدب بأدب شيخه قبل أن يتعلم منه، وقالت لابنها: «اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه»[5]، ويقول مالك: «كانت أمي تلبسني الثياب وتعممني

(1) مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة، 3.

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 113.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 83.

(4) عبير محمد الجفير، دور الأم في التكوين العلمي لأبنائها في ضوء الفكر التربوي الإسلامي 50.

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك 131.

وأنا صبي، وتوجهني إلى ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وتقول: يا بني، ائت مجلس ربيعة فتعلم من سمته وأدبه قبل أن تتعلم من حديثه وفقهه»[1].

وفي حوار آخر بين الإمام وبين أمه، قال لها: «أذهب فاكتب العلم؟»، فقالت له: «تعال، فالبس ثياب العلم، ثم اذهب فاكتب»، يقول الإمام: «فأخذتني فالبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن»[2]، كما يقول الإمام: «نشأت وأنا غلام فأعجبني الأخذ من المغنّين، فقالت أمي: يا بنيّ، إنّ المغنّي إذا كان قبيح الوجه، لم يُلتفَت إلى غنائه، فدعِ الغناءَ واطلب الفقه، فتركتُ المغنّين وتبعتُ الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى»[3].

ولا شك أن الأمة كلها مدينة لهذه الأم العظيمة التي كانت تعرف العلماء وخصائصهم وميزاتهم[4]، وأرشدت ولدها النابغ مثل هذا الإرشاد والتوجيه البناء، فكان ما كان من تكوين هذا الجهبذ الجليل، وهكذا ينبغي على جميع أمهات المسلمين.

ولم يكن والد مالك أقل حرصًا ولا أدنى معرفة بقيمة العلم من أم مالك، بل كان يفهم ما يحتاجه حفظ الحديث من اعتزال الناس والبعد عن ضوضائهم. و«كان مالك يفهم ما يحتاجه حين طلبه العلم، يتبع ظلال الشجر ليتفرغ إلى ما يريد، فقالت أخته لأبيه: هذا أخي لا يأوي مع الناس، قال: يا بنية، إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ»[5]، وقد اختار والد مالك لابنه طريق العلم وانتشله من لَهْو الصبيان، وهي إشارة أخرى إلى

(1) ابن عبد البر، التمهيد 4.

(2) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب 9.

(3) مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة 6-7.

(4) المصدر السابق 3، 11.

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 131/1.

أن روح العصر كانت تهتم بالعلم والتعليم، ومحاولة الناس قدر طاقتهم إحياء المعنى الإسلامي في هذا الباب، قال مالك: «كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي علينا يومًا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتك الحمام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز [شيخه] سبع سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمرًا، وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ، فقولوا: مشغول»[1].

القيم والمبادئ التربوية التي استند إليها الإمام مالك

الإخلاص

يرى الإمام مالك -رحمه الله- أن طلب العلم أفضل من سائر الأعمال، شريطة أن تكون النية فيه حسنة، وكان يرى أن نور العلم لا يؤنس إلا من امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص، ولذلك أثر عنه قوله: «العلم نور، لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع»[2]، والإخلاص وترك ملاذ الدنيا وشهواتها ينير السبيل لطالب العلم، فيهبه الفهم والتوفيق والسداد، وفي ذلك قال: «ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة»[3]، وقال ابن وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقول: ما تعلمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمتُ ليحتاج الناسُ إليَّ، وكذلك كان الناسُ (أي العلماءُ)[4].

الأدب

مر بنا وصية أم مالك، بأن يذهب إلى ربيعة ويتعلم من سمته وأدبه قبل أن يتعلم من حديثه وفقهه، فكان لتلك الوصية وقعها العظيم وأثرها على شخصية الإمام مالك العلمية -رحمه الله- حيث تضمنت منهجًا تربويًّا، وذلك بضرورة تعلم الأدب قبل العلم،

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 131/1.

(2) المصدر السابق 96/1-97.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء 11/7، محمد أبو زهرة، مالك: حياته وعصره، 81.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء 66/8.

وتقديم التأدب على التعلم، ولذلك نلاحظ أن مجلس الإمام مالك كان يتصف بأنه مجلس تربوي أصيل، وكان مجلس وقار وحلم، كما نلاحظ أن الإمام مالكًا الذي وضع لنفسه هذا المنهج منذ أن كان متعلمًا، قد سار عليه والتزمه بعد أن صار عالمًا، فكل من كان يحضر مجلسه كان يتأدب بآدابه مهما علت رتبته ومكانته في المجتمع، وقد أوردت كتب التراجم عامة وتلك التي تناولت الإمام مالكًا خاصة الكثير مما يعضد هذا، ومن ذلك قول مالك بن أنس لفتًى من قريشٍ: يا بن أخي، تعلَّمِ الأدبَ قبل أن تتعلمَ العلم[1]، وقال رحمه الله: حقٌّ على مَن طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر مَن مضى قبله[2]، ولذلك كان من الطبيعي مطالعة مقولة ابن وهبٍ: «ما نقَلْنا مِن أدب مالكٍ أكثرُ مما تعلمنا مِن عِلمه»[3].

تعظيم السُنّة

ربما كان أحد أبرز القيم التي شكلت شخصية الإمام مالك العلمية، تعظيمه لسنة النبي المعصوم ﷺ قال مالك: «قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا نتبع الرأي، وإنه متى ما اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك، فاتبعته، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته، أرى هذا الأمر لا يتم»[4].

وقال رحمه الله: «سَنَّ رسُول الله ووُلاة الأمر بعده سُنَنًا، الأخذُ بها اتِّبَاعٌ لكتاب الله واستكمالٌ بطاعة الله وقُوَّةٌ على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء 330/6.

(2) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي 156/1.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء 113/8.

(4) ابن عبد البر، جامع بيان العلم 1069/2.

شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، ووَلاَّه الله ما تولى، وأصلاه جَهنَّم وساءت مصيرًا»[1].

وعن ابن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فذكرت السنة فقال: السنة سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[2]، وجاء عنه أيضًا قال: من أراد النجاة فعليه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ[3]، وجاء في طبقات الحنابلة: قال مالك بن أنس: من لزم السنة وسلم منه أصهار رسول الله ﷺ ثم مات، كان مع الصديقين والشهداء والصالحين وإن قصر في العمل[4].

وجاء رجل إلى مالكٍ وسأله عن مسألةٍ[5]، فقال له: قال رسول الله ﷺ كذا، فقال الرجل: أرأيت؟ قال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6].

وكان رحمه الله شديد التعظيم لحديث النبي ﷺ، فانيًا في حب المصطفى ﷺ وتعظيم حرمته وحرمة مسجده والحرم المدني، قال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ عنده يتغير لونه، حتى يصعب على جلسائه، فقيل له يومًا في ذلك، فقال: «لو رأيتم لما أنكرتم على ما ترون، كنت آتي محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء، لا نكاد نسأله على حديث إلا بكى حتى نرحمه، ولقد كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضر واصفر»[7].

---

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء 324/6، الذهبي، السير 98/8.

(2) الهروي، ذم الكلام 210، ابن تيمية، مجموع الفتاوى 57/4.

(3) الهروي، المصدر السابق 208.

(4) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة 41/2.

(5) الأصبهاني، حلية الأولياء 326/6.

(6) سورة النور: الآية 63.

(7) القاضي عياض، ترتيب المدارك 197/1.

وكان مالك -رحمه الله- في أواخر عمره ترك شهود الجماعة والجمعة، بسبب كراهيته الدخول إلى المقام النبوي وفيه سلس البول، ولم يذكر ذلك لأحد حتى سئل رحمه الله لما حضرته الوفاة عن سبب تخلفه عن المسجد، فقال: «لولا أني في آخر يوم من الدنيا، وأوله من الآخرة، ما أخبرتكم، سلس البول، فكرهت أن آتي مسجد النبي ﷺ على غير طهارة استخفافًا برسول الله، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي»[1].

الاجتهاد في طلب العلم، وملازمة العلماء

كان المتعلمون في الصدر الأول يعتمدون (التلقي المباشر) من أفواه المشايخ عبر الملازمة الطويلة لهم، منهجًا ثابتًا لهم لا يحيدون عنه في طلب العلم، مع النهم، والمسابقة، والبكور، ومزاحمة العلماء بالركب، سئل الإمام مالك رحمه الله: «أيؤخذ العلم عمن ليس له طلب ولا مجالسة؟ فقال: لا، فقيل: أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ، ولا يفهم ما يحدث؟ فقال: لا يكتب العلم إلا ممن يحفظ، ويكون قد طلب، وجالس الناس، وعرف وعمل، ويكون معه ورع»[2].

ويمكن القول إن أحد أكثر العوامل التي أسهمت في التكوين العلمي للإمام مالك هم شيوخه الذين كانوا من الكثرة بمكان، بحيث يصعب على المرء الإحاطة بهم، ومن أمثالهم ربيعة بن عبد الرحمن فروخ المعروف بربيعة الرأي، وعبد الله بن يزيد بن هرمز الذي انقطع إليه مالك سبع سنين، ومحمد بن شهاب الزهري وهو على رأس شيوخه الذين روى عنهم في الموطأ، ونافع مولى ابن عمر... وغيرهم كثير.

قال مالك: «كنت آتي نافعًا وأنا غلام حديث السن، مع غلامٍ لي، فينزل من درجه، فيقف معي، ويحدثني، وكان يجلس بعد الصبح في المسجد، فلا يكاد يأتيه

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك 1/ 200.

(2) السيوطي، إسعاف المبطأ برجال الموطأ 4.

أحد»[1]، وقال رحمه الله: «كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه»[2]، وقال: «كنت آتي بن هرمز بكرة، فما أخرج من بيته حتى الليل»، وكان حريصًا على روايات الزهري، روى عنه أنه قال: «شهدت العيد فقلت: هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب الزهري، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب؟ فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك؛ قال: ادخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئًا؟ قلت: لا، قال: أطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فماذا تريد؟ قلت: تحدثني، قال لي: هات، فأخرجت ألواحي فحدثني أربعين حديثًا، فقلت: زدني، قال: حسبك إن كنت حفظت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ! قلت: قد رويتها، فجبذ الألواح من يدي، ثم قال: حدث، فردها إلي، وقال: قم فأنت من أوعية العلم»[3].

وتنبغي الإشارة إلى أن مالكًا بعد أن تخرج على العلماء الثقات، سعى إلى تنمية علمه وتطويره عن طريق الاتصال المستمر بعلماء عصره، فقد التقى بأبي حنيفة، والليث ابن سعد، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم، وهو في اتصالاته هذه يأخذ ويعطي، وهو ما يمكن أن نسميه بمصطلح العصر الحاضر "التعليم المستمر".

الصبر على البلاء في سبيل إحقاق الحق

الابتلاء سنة جارية في الأفراد والدول والشعوب والمجتمعات، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يُبتلى الرسل بأممهم، والأمم برسلهم، وأن يُبتلى الحكام بالمحكومين،

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء 107/8.

(2) الأصبهاني، حلية الأولياء 320/6، و الذهبي، سير أعلام النبلاء 107/8.

(3) ابن فرحون، الديباج المذهب في أعيان المذهب 117.

والمحكومين بالحكام ... وقد كُتب ذلك على بني البشر أجمعين. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1].

أما الحادثة التي اشتهرت عن مالك وابتلي بها في سبيل إحقاق الحق، فهي -كما ورد في السّيَر- أن أبا جعفر نهى مالكًا عن حديث: ليس على مستكره طلاق[2]، ثم دس إليه من يسأله، فحدثه به على رؤوس الناس، فضربه بالسياط، وحدثنا العباس، حدثنا إبراهيم بن حماد، أنه كان ينظر إلى مالك إذا أقيم من مجلسه، حمل يده بالأخرى، وفي موطن آخر من "السير" أيضًا: لما دعي مالك، وشوور، وسمع منه، وقبل قوله، حسد، وبغوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره: أنه لا يجوز عنده، قال: فغضب جعفر، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رفع إليه عنه، فأمر بتجريده، وضربه بالسياط، وجبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمر عظيم، يقول الذهبي: فوالله، ما زال مالك بعد في رفعة وعلو[3]، وكيف لا، وقد اقتضت سنّة الله تعالى أن يكون الابتلاء طريق العلماء والدعاة إلى الله عز وجل، وسبيلهم إلى التمكين.

وروي أيضًا «عن أبي داود قال: حكى لي بعض أصحاب ابن وهب عنه، أن مالكًا لما ضرب، حلق وحمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك، فقال: ألا من عرفني،

---

(1) سورة البلد: الآية 4.

(2) موقوف على ابن عباس رضي الله عنه، علقه البخاري 485/9.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء 79/8-80.

فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء، فبلغ ذلك جعفر بن سليمان الأمير، فقال: أدركوه، أنزلوه»[1].

وهكذا، فإن ثبات الإمام مالك على فتواه المستندة إلى حديث رواه، ولم يحد عنها ولم ير مخالفتها إرضاء للحكام في أهوائهم، يعد إحدى القيم والثمرات التربوية في حياته.

الاعتزاز بالعلم

كان مالك -رحمه الله- لا يبذل العلم إلا لمن طلبه وسعى إليه، ولا يقرأ بنفسه على الناس، بل هم يقرؤون عليه، ومن دلائل ذلك عندما طلب منه الخليفة العباسي المهدي أن يأتي ليعلم أولاده هارون وموسى اعتذر قائلًا: «يا أمير المؤمنين، العلم يؤتى أهله، فقال المهدي: صدق مالك، صِيرا إليه، فلما صارا إليه، قال له مؤدبهما: اقرأ علينا، فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطؤوا أفتاهم، فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك فكلمه فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب وأبوسلمة وعروة وسالم ... وسمى رجالا... ثم قال: كل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرؤون، فقال المهدي: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه فاقرأو عليه، ففعلوا»[2].

«وسأل هارون الرشيد مالكًا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليهم، قال: ما قرأت على أحد منذ زمن، وإنما يقرأ عليَّ، فقال: أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك، فقال: إذا مُنِعَ العام لبعض الخاص، لم ينتفع الخاص، وأمر معن بن عيسى فقرأ عليه»[3].

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء 79/8، 81، 96.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء 63/8-64.

(3) المصدر السابق 66/8.

منهجية الإمام مالك ومقوماته العلمية

أخذ العلم عن العلماء الثقات

مر بنا أن الإمام مالكًا -رحمه الله- أخذ العلم عن فحول العلماء من التابعين، كنافع مولى ابن عمر، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وربيعة الرأي، وعبد الرحمن بن هرمز، ومن المشهور قول البخاري: «أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر»[1]، وهي السلسة الذهبية كما يُقال.

«قال ابن أبي أويسٍ: سمعت خالي مالك بن أنسٍ يقول: إن هذا العلم دِينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركتُ سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ، فما أخذت عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال، لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهابٍ فكنا نزدحم على بابه، وقال مَعْنُ بن عيسى ومحمد بن صدقة: كان مالك بن أنسٍ يقول: لا يؤخذ العلم من أربعةٍ، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيهٍ، ولا يؤخذ من صاحب هوًى يدعو إلى بدعتِه، ولا من كذابٍ يكذِب في أحاديث الناس، وإن كان لا يُتَّهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخٍ له فضلٌ وصلاحٌ وعبادةٌ إذا كان لا يعرِف ما يحمِل وما يحدِّث به»[2]، وتثبت مقولة الإمام مالك هذه مدى عنايته وإجلاله للسنة النبوية، وأن لا تؤخذ إلا من أربابها الذين هم أهلها.

وكان مالك إمامًا في نقد الرجال حافظًا مجودًا متقنًا، «سأل رجل مالكًا عن رجل فقال: هل رأيته في كتبي؟ قلت: لا، قال: لو كان ثقة لرأيته في كتبي»[3]، قال الذهبي

(1) ابن الصلاح، علوم الحديث 16.

(2) ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء 16.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/71-72.

معلقًا: «فهذا القول يعطيك بأنه لا يروي إلا عمن هو عنده ثقة، ولا يلزم من ذلك أنه يروي عن كل الثقات، ثم لا يلزم مما قال أن كل من روي عنه وهو عنده ثقة، أن يكون ثقة عند باقي الحفاظ، فما يخفي عليه من حال شيخه ما يظهر لغيره، إلا أنه بكل حال كثير التحري في نقد الرجال»[1]، ولذلك قال سفيان الثوري: «رحم الله مالكًا، ما كان أشد انتقاده للرجال!»[2].

وقال يحيى بن سعيد القطان: «ما في القوم أصح حديثًا من مالك»، قال ابن عبد البر: «يقصد بالقوم؛ الثوري والأوزاعي وابن عيينة»[3]، وقال ابن عيينة: «كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحًا، ولا يحدث إلا عن ثقة، ما أري المدينة إلا ستخرب بعد موته» يعني من العلم[4].

مراعاة الدليل وعدم التعصب للرأي

يعد أحد أبرز معالم منهج الإمام مالك -رحمه الله- مراعاة الدليل وعدم التعصب للرأي، ولعلّ هذا مما زاد في ثقة الأمة في هذا الإمام المبارك، فيُلاحَظ أنه لا يتعصب لرأيه، بل يتجرد مع الدليل حتى يصل إلى ما يراه أنه الحق، فالإمام -رحمه الله- يرفع لواء تعظيم النصوص والأدلة النقلية، والتركيز على الاستدلال بها، والاستنباط منها، وطرح كل ما يخالفها، بعيدًا عن التعصب لمذهب، أو التقليد للغير بدون دليل صحيح أو نظر سليم، ومن نماذج ذلك قوله: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء 72/8.
(2) المصدر السابق 73/8.
(3) ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء 59.
(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء 73/8.

وافق الكتاب والسنة، فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة، فاتركوه[1]، وقوله: «كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر»، يقصد النبي ﷺ[2].

وقال ابن وهب: «سمعت مالكًا سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء؟ فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خفَّ الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن المستورد بن شداد القرشي، قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلُك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال: إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يُسأل، فيأمر بتخليل الأصابع[3].

ومما يدل على اهتمام مالك بالنصوص والأدلة، أنه في تأليفه لكتابه الموطأ، جمع فيه الصحاح من الأحاديث والأخبار والآثار وفتاوى الصحابة والتابعين، ثم اتبع ذلك بذكر الرأي الذي يراه.

التحرز الشديد في الفتوى

اشتهر عن الإمام مالك قوله: «ما أفتيت حتى شَهد لي سبعون أني أهلٌ لذلك»[4]، وقال خلف بن عمرو: «سمعت مالك بن أنس يقول: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني، هل يراني موضعًا لذلك؟ سألتُ ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد،

(1) ابن عبد البر، الجامع 32/2.
(2) نسبةُ هذا إلى مالك هو المشهور عند المتأخرين، انظر: ابن عبد البر، الجامع 91/2.
(3) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل 31-32.
(4) الذهبي، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي 154/1.

فأمراني بذلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، فلو نَهَوْك؟ قال: كنت أنتهي، لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلًا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه»[1].

وبالرغم من ذلك، فقد كان رحمه الله يتحرز تحرزًا شديدًا في فتاويه، وكان قبل الفتوى يستعين بالله، قال إسماعيل بن أبي أويس: «كان خالي مالك لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله»[2]، وقال تلميذه أشهب: «رأيت في النوم قائلًا يقول لي: لقد لزم مالك كلمة عند فتواه لو وردت عليه الجبال لقلعها، وذلك قوله: ما شاء الله لا قوة إلا بالله»[3]، وبعد ما يفتي رُوي عنه أنه كان يقول في بعض ما كان ينزل، فيُسأل عنه فيجتهد فيه رأيه: «إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين»[4]، وانظر أيضًا إلى هذا التحرز الشديد والذي ينقله تلميذه أشهب قال: «رآني مالك أكتب جوابه في مسألة، فقال: لا تكتبها، فإني لا أدري أَثْبتُ عليها أم لا»[5].

التثبت والتحري

كان شعار مالك -رحمه الله- حين يُسأل (لا أدري)، ولا تستكمل لديه أدلة المسألة من جوانبها كلها، فيتذرع بشعاره هذا، فإذا وضح لديه الجواب ولم يبق فيه أدنى ريب في نفسه أجاب، وإلا قال: «لا أدري»[6].

وفي ذلك يُنقل عن مالك قوله: جُنَّة العالم (لا أدري) إذا أغفلها أُصيبت مقاتلُه، وقد سُئل عن أربعين مسألةً، فقال في ست وثلاثين: «لا أدري»، وكان إذا سئل عن

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء 316/6-317.
(2) الذهبي، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي 156/1.
(3) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب 113/1.
(4) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله 1075/2.
(5) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب 113/1.
(6) عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس 87.

مسألة تغير لونه –وكان أحمر– فيصفر بصفرة وينكس رأسه، ويحرك شفتيه، ثم يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فربما يسأل عن خمسين مسألة، فلا يجيب منها واحدة[1].

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «سأل رجل مالكًا عن مسألةٍ، وذكر أنهم أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر، قال: فأخبِرِ الذي أرسلك أني لا علمَ لي بها، قال: ومن يعلَمُها؟ قال: مَن علَّمه الله»، وقال الهيثم بن جميلٍ: «شهِدتُ مالكَ بن أنسٍ سئل عن ثمانٍ وأربعين مسألةً، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري»، وقال خالد بن خداشٍ: «قدمتُ على مالكٍ من العراق بأربعين مسألةً، فسألته عنها، فما أجابني منها إلا في خمسِ مسائل»[2].

وهكذا يكشف الإمام مالك من خلال قوله (لا أدري) عن خُلقين من أخلاق العلماء: أولهما– كراهية كثرة الفتيا؛ لكي يخرج نفسه من دائرة الشكوك، وثانيهما– التواضع وإعلام المتعلمين والسائلين أنه مهما بلغ الفقيه من العلم، فلا يستطيع الإجابة عن كل ما يسأل عنه، فهو ليس معصومًا من الخطأ[3].

الحرص على نشر العلم

كان مالك يحث طلابه على نشر العلم وعدم كتمانه، وحذرهم من تضييعه، وفي ذلك روى أبو يزيد بن أبي الغمر، عن ابن القاسم تلميذ مالك وصاحبه قال: «كنا إذا ودعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه»[4]، واشتهرت

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك 147.

(2) ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء 37–38.

(3) رضا بو شامة، رسالة في قول الإمام مالك: لا أدري لمحمد بن أحمد البهوتي الحنبلي 1088هـ، 46.

(4) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله 167/1.

وصية مالك لابن القاسم بتقوى الله ونشر العلم، فقال له: «اتق الله، وعليك بنشر هذا العلم»[1].

وكتب عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد إلى مالك بن أنس يحضه على الانفراد والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجلٍ فُتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبرٍّ[2]، وبالرغم من إشارة هذه العبارة إلى الطبيعة البشرية في تنوع الهمم والأولويات، وإلى أن ذلك يعد ضرورة للتكامل بين أبناء الأمة فرادى وجماعات، فإنها تؤكد تفضيل الإمام -رحمه الله- لنشر العلم على ما سواه من الطاعات.

الاهتمام بالفقه العملي

كان مالك يرى عدم الخوض في المسائل التقديرية التي لم تقع، وينهى عن الفقه الافتراضي، وعن مسائل الأغلوطات، وكان يعنى في درسه بالإجابة عن المسائل الواقعة، ولا يحب أن يسير وراء الفرض والتقدير، وقد سأله سائل عن مسألة فرضية، فقال: «سل عما يكون، ودع ما لم يكن»، وسأله آخر عن مسألة أُخرى فلم يجبه، فقال له: لم لا تجيبني؟ فقال: «لو سألت عما ينتفع به لأجبتك»، وكان رحمه الله يقول: «لا أحب من الكلام إلا ما كان تحته عمل»[3]، وبهذه المقولة، كان مالك يرسم منهج أهل السنة ويعبر تعبيرًا صادقًا عن نظرتهم للأمور، وكأنه يرد بذلك على منهج الجدل وتكديس المعلومات

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك 246/3.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء 114/8.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك 246/3.

التي ليس لها من الواقع العملي نصيب، والذي بدأ يتغلغل في جسم المجتمع الإسلامي منذ ذلك الحين، والحقيقة أنه لو استمر المسلمون على هذا المنهج العملي والتجريبي لتغير حالهم، ولما وصلوا إلى هذا الضعف المزري الذي تعيشه الأمة الآن.

النكير على أهل الجدل والبدع والأهواء

وأما عقيدته، فهو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين من الإيمان بكل ما ثبت في القرآن الكريم والحديث الشريف بدون تأويل، وكان يكره الخوض في مسائل الاعتقاد ويحب السكوت عنه، وكانت دراسة مالك للنصوص العقدية تقف عند مدلول النص القرآني أو الحديثي، ولا يتجاوز المعنى الواضح في لفظ جاء به القرآن أو السنة فيما يخص العقائد، وقد سئل –مثلا– عن آيات وأحاديث الصفات فقال: أمرّها كما جاءت بلا تفسير(1)، وقوله صريح بأنه لا يذهب مذهب المتأولين، بل يبقي اللفظ على ظاهره، فكان أبعد الناس عن المتكلمين وأشدهم بغضًا لهم، ولكراهية الجدل أكثر من النهي عنه فكان يقول: «الجدال في الدين ينشئ المراء، ويذهب بنور العمل من قلب العبد، ويقسه ويورث الضغن»(2).

قد جرت في عصر مالك مجادلات عن مسائل كلامية سئل عنها في درسه وفي غير درسه، فكانت إجابته فيها على طريقته في الوقوف عند ما وقف عنده السلف، وهو فهم النص الظاهر لا يتجاوزه، ولا يثير حوله المنازعات العقلية والافتراضات الظنية التي لا يهتدي المفكر فيها إلى رأي ولا يترتب عليها عمل، وهو ما يؤكد المبدأ الذي تعرضنا له في العنصر السابق.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 105/8.

(2) الأصبهاني، حلية الأولياء، 324/6، والذهبي، سير أعلام النبلاء، 99/8.

وكان مالك ينكر إنكارًا شديدًا على من خالف البيّنات، وما هو يقين عنده من الكتاب والسُّنة الصحيحة الصريحة، وإجماع مَن سبق مِن السلف، حكى الإمام الشافعي: «كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: أما إني على بينة من ربي وديني، وأما أنت فشاكٌّ، اذهب إلى شاكّ مثلك فخاصمه»[1]، ومثله ما قال بن وهب[2]: سمعت مالكًا يقول إذا جاءه أحد من أهل الأهواء: «أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاكٌّ فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، ثم قرأ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وكان يقول: «أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبرائيل على محمدٍ ﷺ لجدله»[4].

وجاء في ذم الكلام بالسند إلى أشهب بن عبد العزيز، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان[5].

ومشهورة هي مسألة الاستواء على العرش التي سئل عنها الإمام، حيث «جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى؛ كيف استوى؟ فما وجد مالك مِن شيء، ما وجد مِن مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرُّحَضاء -يعني العرق- ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء، 324/6، والذهبي، سير أعلام النبلاء، 99/8.
(2) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب 115/1.
(3) سورة يوسف: الآية 108.
(4) الذهبي، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي، 154/1.
(5) الهروي، ذم الكلام 207، والبغوي، شرح السنة 2017/1.

بدعة، وأمر به فأخرج»[1]، واللفظ عند البيهقي: «فأطرق مالك رأسه، حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، فأمر به أن يخرج»[2].

ومن أقواله رحمه الله: «بئس القوم أهل الأهواء، لا نسلم عليهم»[3]، و قال ابن عبد البر: كره مالك –من بين سائر العلماء– أن يصلي أهل العلم والفضل على أهل البدع[4].

وعلى العموم، فقد كان كلام الإمام مالك في مسائل العقائد قليلا، ويرجع ذلك –على ما يبدو– إلى أن الاشتغال بهذه المسائل لم يكن قد توسع بعد في عصره، وأنه لم يكن رحمه الله يحب الخوض فيما ليس تحته عمل، ولذلك لم يتكلم إلا فيما رأي أن الحاجة ماسة لبيان موقفه منه.

وعلى الجملة، كان مالك –رحمه الله– على علم بالفرق الكلامية، لكنه لم يلتفت إليها، ولم يشغل نفسه وتلاميذه بالرد عليها، فكان موقفه الابتعاد على أساس أنها أمر مبتدع، لا طائل من ورائه، هذا في أثناء الدرس، أما خارج الدرس فكان له كلام قليل فيها؛ لأنه يكره الجدال كرهًا شديدًا، ويرى أن الدين منهج حياة وسلوك، وأن من الخطأ الفادح أن يُجعل مجالا للجدل والمناظرات.

(1) الأصبهاني، حلية الأولياء 326/6.

(2) البيهقي، الاعتقاد 116.

(3) البغوي، شرح السنة 229/1.

(4) ابن عبد البر، الاستذكار 258/8.

الإنصاف ومراعاته للخلاف

كان الإمام مالك -رحمه الله- غاية في الإنصاف والتواضع والورع، عميق الفقه، بعيدًا عن الإعنات والأنا والتكلف، وما قصته في رفضه أمر المنصور تعميمَ (موطّئه) إلا صفحة من تلك الصور، فقد رد عليه مالك رحمه الله: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم»، فقال: لعمري، لو طاوعتني لأمرت بذلك، قال الزبير بن بكار: حدثنا ابن مسكين، ومحمد بن مسلمة، قالا: سمعنا مالكًا يذكر دخوله على المنصور، وقوله في انتساخ كتبه، وحمل الناس عليها، فقلت: قد رسخ في قلوب أهل كل بلد ما اعتقدوه وعملوا به، ورد العامة عن مثل هذا عسير[1].

الأساليب التعليمية لدى الإمام مالك

يمكن القول إن الإمام مالكًا استخدم جميع الأساليب التعليمية والطرق التربوية المتاحة في عصره، وبالرغم من أن الرحلة في طلب العلم كانت من أهم مقومات العالم لاسيما المحدث في ذلك الوقت، فإن المؤرخين لم يذكروا عن مالك أنه رحل في طلب العلم، وربما كان ذلك لأن الإمام كان يعتقد -كما اعتقد غيره- أن العلم هو علم المدينة، والأساليب التالية في بث ونشر العلم، هي تلك التي أمكننا الوقوف عليها من خلال قراءة سيرة مالك رحمه الله.

(1) نقلا عن: الذهبي، سير أعلام النبلاء 78/8، وابن عبد البر، الانتقاء 38، 40، والقاضي عياض، ترتيب المدارك 193/1.

مجالس العلم

أبدع الإمام مالك في توظيف مجالس العلم والتعليم، من وضع ضوابط وقواعد لهذه المجالس، ومن ذلك –مثلا– تقسيم المتعلمين بناءً على مستواهم العلمي، مما يصلح لقوم دون قوم ولفئة دون أخرى، وعلى سبيل المثال، كان مالك يتبع ما يُسمى في التربية المعاصرة بمراعاة الفروق الفردية، فقد كانت له دروسه الخاصة بتلامذته المواظبين على حلقته المنتظمين في مجلسه، وكان هذا المستوى يتميز بالعلم الرفيع، والقضايا الفقهية العميقة، والتزكية المتميزة الراسخة، وكان يلتقي في هذا المجلس العلمي الخاص بالنابهين من العلماء المقيمين بالمدينة واتخذوها مقامًا، طلبًا للعلم والتثبت فيه، وعلى سبيل المثال، فقد لازمه محمد بن الحسن ثلاث سنوات، وتعرف من خلاله مالك على ما ورثه من علم أبي حنيفة وأصحابه، ومن سبقه من فقهاء العراق وقضاته[1]، ومن المشهور كذلك، من ناحية أخرى، أنه كان لمالك درسه العلمي العام، الموجه لعامة الناس دون الغوص إلى أعماق القضايا الفقهية.

وكان مالك إذا أراد أن يحدِّث في مجالس العلم، توضأ، وجلس على فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في الجلوس بوقارٍ وهيبةٍ، ثم حدَّث، فقيل له في ذلك، فقال: «أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدِّثَ به إلا على طهارةٍ متمكنًا»، وكانت مجالس العلم أساسًا وديدنًا في حياته العلمية، فكان يكره أن يحدِّث في الطريق قائمًا أو مستعجلا، ويقول: «أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ»[2].

وكان كثير الصمت، قليل الكلام، وكان مجلسه مجلسَ وقارٍ وحِلم، وكان رجلًا مهيبًا نبيلًا، ليس في مجلسه شيء مِن المِراء واللَّغَط، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء 75/8.

(2) الأصبهاني، حلية الأولياء 318/6.

والحديثين، أو قال: الحديث بعد الحديث، وربما أذِن لبعضهم فقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه، يقال له: حبيب، يقرأ للجماعة، وليس أحد ممن حضره يدنو منه، ولا ينظر في كتابه، ولا يستفهمه، هيبةً له وإجلالًا، وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ، فتَح عليه مالك، وكان ذلك قليلًا[1].

الكتابة والتأليف

إلى جانب مجالس العلم وهي الطريق الأشهر لمالك -رحمه الله- في نشر العلم، كان ممن اعتنى بالتأليف والتصنيف، بل كان من أوائل المصنفين في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وقد ألّف رحمه الله في مجالات عدة، وكانت كلها مرتبطة بحاجة من حاجات الدعوة ونشر الدين.

ويعد كتابه "الموطأ" أهم كتب الإمام على الإطلاق، وهو «غرة في جبين الدين، ودرة في تاج الفضل واليقين، وسار في البدو والحضر مسير الشمس والقمر، وصار حجة على الأنام، وقدوة يأتم بها أولو الأحلام»[2]، ويكفينا في ذلك قول الشافعي، وهو مَن هو! رحمه الله: «ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صوابًا مِن موطأ مالك»، وفي لفظ آخر: «ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن مِن كتاب مالك»، وفي لفظ: «ما بعد كتاب الله كتاب أنفع مِن كتاب مالك»[3].

والموطأ يعد أول تدوين في الحديث والفقه، وقد جمعه مالك وتحرى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وهو صورة معبرة عن شخصية مالك العقلية العلمية، وللموطأ تأثير كبير على من صنف من بعده من المصنفين

(1) ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء 41-42.

(2) السلماسي، منازل الأئمة الأربعة 181-182.

(3) الذهبي، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ 154/1.

من حيث المنهج، فقد تأثر به من جاء من بعده، وأظهر مثال على ذلك الكتب الستة، وعدد نسخ الموطأ أوصلها العلماء إلى ثلاثين نسخة، واشتهر منها ست عشرة نسخة، والاختلاف بينها يسير، ويرجع إلى اختلاف الأوقات التي أخذ أصحابها الموطأ من مالك.

أما منهج الإمام في ترتيب الموطأ، فقد رتبه ترتيبًا فقهيًّا، وفي كل موضوع من الموضوعات الفقهية هذه يُدرج الأحاديث والأحكام تحت كتب وأبواب، وكان هذا الترتيب استجابة لحاجة المسلمين من السُّنة؛ إذ إن أول ما يحتاجون إليه منها إنما هو الأحكام الفقهية.

ويعد الموطأ ديوان العلم المدني، فقد حوى طائفة من أحاديث مالك، ومجموعة من أقضيته وفتاويه، وما كان له من تخريجات وآراء فمشتقة منها، أو محولة عليها، أو ناهجة مثل نهجها[1].

وللإمام مؤلفات أخرى عديدة، ذكرها القاضي عياض في "ترتيب المدارك"، والسيوطي في "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، وفي "الديباج المذهب" لابن فرحون[2]، ومن هذه المؤلفات التي أشرنا إلى بعضها في المباحث السابقة:

- رسالة في القدر والرد على القدرية.
- كتاب في النحو، وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، والكتاب حجة في بابه.
- رسالة في الأقضية، وقد كتب بها إلى بعض القضاة.
- رسالته في الفتوى، أرسلها إلى أبي غسان محمد بن مطرف.
- رسالته إلى هارون الرشيد، في الآداب والمواعظ.

(1) محمد أبو زهرة، مالك: حياته وعصره، آراؤه الفقهية 196.

(2) خير الدين الزركلي، الأعلام 52/1.

- كتاب في التفسير لغرائب القرآن، الذي يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي.
- رسالته المشهورة إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة.

وأمَّا ما نَقل عنه كبار أصحابه من المسائل والفتاوى والفوائد فشيء كثير، ومن كنوز ذلك "المدونة"، وهي من أَجَلِّ الكتب في مذهب مالك، وقد اعتنى بها العلماء شرحًا وتهذيبًا واختصارًا وتعليقًا.

المناظرات

تعد المناظرات إحدى السبل المهمة في معرفة طرق الاستدلال، وتمييز الصواب من الخطأ في الأحكام والآراء، وقد تأثر مالك -رحمه الله- بالتناظر الذي كان سائدًا في عصره من خلال مناظراته لبعض الفقهاء، وكان يرحب رحمه الله ويشارك في المناظرات التي يُقصد بها طلب الحق المجرد من الجدل المنهي عنه.

ولم يكن الإمام يفضل المناظرات على طول الخط، فعن مالك قال: قدم هارون يريد الحج، ومعه يعقوب أبو يوسف، فأتى مالك أمير المؤمنين، فقربه، وأكرمه، فلما جلس، أقبل إليه أبو يوسف، فسأله عن مسألة فلم يجبه، ثم عاد فسأله فلم يجبه، ثم عاد فسأله، فقال هارون: يا أبا عبد الله، هذا قاضينا يعقوب، يسألك، قال: فأقبل عليه مالك، فقال: يا هذا، إذا رأيتني جلست لأهل الباطل، فتعال أجبك معهم[1].

كما كان الإمام يتابع طلابه ويدربهم على الدعوة والمناظرة، ويقدم لهم ملحوظاته وخبراته، كما كان يقدم بعض تلامذته ليناظروا بعض العلماء، وهو حاضر، دون أن يخوض بنفسه فيها، ومن ذلك، لما أبى مالك المناظرة مع أبي يوسف أمام الرشيد، قام المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي تلميذ الإمام يطلب مناظرة أبي يوسف، فأذن له أمير المؤمنين، وكان فقيه المدينة بعد مالك، فقويت حجة المغيرة على أبي يوسف، فتناظرا إلى

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء 64/8، وهو في تذكرة الحفاظ 210/1.

المغرب، وقال المغيرة لمالك حين خرجوا: كيف رأيت مناظرتي للرجل؟ قال رأيتك مستعليًا عليه، غير أنك كنت تترك شيئًا، قال: وما هو؟ قال: كنت إذا ظهرت عليه في مسألة فضاقت به، أخرجك إلى غيرها وتخلص منها بذاك، وكان ينبغي أن لا تفارقه فيها حتى يفرغ منها[1].

المراسلات العلمية

تعد المراسلات أحد أهم الأساليب التعليمية المستخدمة في التوجيه والتنبيه، ولأهمية المراسلات العلمية، اتخذها العلماء والفقهاء للتواصل فيما بينهم، بهدف النقاش وتبادل الآراء، وبيان وجهات النظر، عندما تبعد المسافات ويصعب التلاقي المباشر، وهذه الرسائل، من ناحية أخرى، أسلوب من أساليب نشر الدعوة والعلم، وقد تحتوي –فيما تحتوي– على موضوعات متعددة على جهة وصايا أو مواعظ أو تحقيق في مسائل معينة.

ويكاد الإمام مالك أن يكون –من بين العلماء والفقهاء– أول من اختط أسلوب الرسائل العلمية المرسلة لأشخاص معينين، سواء كانوا علماءَ أو حكامًا، ومن هذه المراسلات، ما سبقت الإشارة إليه من رسالته ردًّا على كتاب عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد إليه يحضه على الانفراد والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، ومنها رسالته إلى غسان محمد بن مطرف[2]، التي تضمنت العديد من التوجيهات التربوية، كالحث على تقوى الله، وذكر صفات العالم التي ينبغي أن يتصف بها، ليكون أهلا للتلقي ومنبعًا للعلم والتعليم، وانتظمت تلك التوجيهات في صياغة حسنة رائقة متعددة الأساليب، والتي ضمنت بدورها إيصال أهداف الوصية وتحقيق غايتها، فاستعمل مالك –رحمه الله–أسلوب التعريض والموعظة والترغيب والترهيب والإقناع، فتحققت

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك 3/4-5.

(2) عادل الجهني، التوجيهات التربوية في رسالة الإمام مالك إلى محمد بن مطرف 68.

الآثار المرجوة من تلك الوصية، من تقوية الصلة بالله تعالى، وتحقيق الاتباع الحقيقي لصاحب الشرع، والاحتياط في أمور الدين، فكانت الوصية في مجملها من الكلام قليل الألفاظ وافر المعنى.

ومن الرسائل كذلك، رسالة مالك إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، والتي تتضمن مواعظ وإرشادات يحتاجها كل حاكم مسلم، وخاصة في وقتنا الحاضر[1]، فهي رسالة في السنن والمواعظ والآداب كما وسمت في كثير من المخطوطات والمصادر التي أشارت إليها، وتتضمن سننًا نقلها الإمام مالك عن النبي ﷺ، ومواعظ وعظ بها من ألفت له الرسالة، سواء كان هارون الرشيد أو غيره من الحكام، وآدابًا حث الإمام مالك على التزامها وتعاهدها وعدم هجرها.

وتعد رسالة الإمام مالك إلى الليث رحمهما الله تعالى، إحدى أبرز الرسائل التي يظهر فيها توقير العلماء، وترك التعصب والتزام المناقشة والحوار والتناصح للوصول إلى الحق، وقد جاءت هذه الرسالة ردًّا على رسالة مسبقة بعث بها الليث إلى "مالك"، يطلب فيها النظر في مؤلفات ألفها، ومراجعتها وإبداء الرأي فيها[2]، واحتوت الرسالة على فوائد جمة، وقد توخى فيها الإمام منهج الاختصار وعدم الإطالة في الحديث، بأسلوب طغى عليه الرفق واللين الممزوج بالصراحة والوضوح في بيان الحق، والرد على بعض الاعتراضات المتوقعة بكل توقير ومودة وتلطف بالمخاطب، بما يليق بمقامه ومكانته عند الناس، وقد رد الإمام الليث -رحمه الله- على الإمام مالك برسالة طويلة، تعد قطعة

(1) رياض مصطفى شاهين، ومحمد رضوان أبو شعبان، دراسة وتحقيق لرسالة الإمام مالك بن أنس إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد 13.

(2) سالم حسين بننصيرة، رسالة الإمام مالك إلى الليث بن سعد رحمهما الله تعالى 53.

من الأدب الرفيع، فضلا عن كونها وثيقة أخلاقية فقهية نفيسة، مدعومة بالأدلة من الكتاب والسنّة[1].

وأخيرًا، استخدم الإمام مالك – في الأساليب التعليمية السابقة- كثيرًا من الطرق التربوية التي لا بد أن تجد لها موقعًا في تربية ناشئة المسلمين هذه الأيام، مثل الموعظة الحسنة، والتعريض، والترغيب، والترهيب، والإقناع، والرد التوجيهي، والشفقة والعطف، والحزم في بعض الحالات.

الخاتمة

كثيرة هي الدروس المستفادة من حياة الإمام مالك -رحمه الله- وأقواله وأعماله، التي يمكن الإفادة منها في حياتنا التربوية المعاصرة، لاسيما في هذا العصر الذي يموج بالفتن والاضطرابات والتقلبات الشديدة.

قد نشأ الإمام في بيئة محبة للعلم ومشجعة عليه، واعتمد على أصول ثابتة قوامها الكتاب والسنة، وتميزت أخلاقه بالرفعة والسمو، والصبر والجلد والمثابرة، وتنوعت أساليبه التعليمية في إيصال علمه وفقهه للناس، وارتبط اختيار الإمام لهذه الأساليب بحال المتعلمين والمدعوين وظروف البيئة المحيطة، وكان يكره الجدل والمناظرة، ويحب السكينة ويعكف على الدرس المطمئن، وقد كانت للإمام همة في طلب العلم، وكان الأدب مقدمًا لديه على العلم، مما يدل على مزجه بين العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية والتربوية، وجعل السلوك التربوي أساسًا في تلقي العلوم الشرعية والدينية.

وقد أخذ الإمام بمتلازمة العلم والعمل معًا، فقد كان عالمًا عاملا بعلمه، كما أنه كان يتمثل ما يعلمه للناس، كما عُرف مالك بعدم القطع في الأمور، وتحري الدقة في

(1) عبد الرافع الفقي، منهج الإمام مالك بن أنس في التعليم والنصح لأولي الأمر في عصره 468.

رواية الحديث، وهي رسالة تربوية لكل الأجيال، مفادها أن نتحرى الدقة في أخذنا للعلوم بمختلف أنواعها.

وعلى العموم، ربما كان أحد أبرز الآثار التربوية للإمام، تلاميذه الذين كانوا من الكثرة بمكان، ويشهد على ذلك مجلسه الذي كان يغص بطلاب العلم، وقد انتقلت آثار هذا الجيل، عبر العصور، إلى الأجيال التي تلته وحتى الجيل الذي نعيش؛ شاهدةً على ما تحمله من قيم ومبادئ جليلة.

وفي ضوء هذه النتائج التي توصلنا إليها، نقدم التوصيات التالية التي نضعها بين يدي المربين والمعلمين عامةً، والقائمين على التخطيط وإعداد السياسات التربوية وصناع القرار التربوي خاصة، في المجتمع العربي والإسلامي:

- إفساح المجال، في المؤتمرات والفعاليات العلمية التعليمية والتربوية، لنماذج من التراث التربوي الإسلامي، كما هو الحال في التراث المتمثل في حياة الإمام مالك رحمه الله.
- لا بد من تركيز المناهج التربوية في المدارس والجامعات على سيرة السلف الصالح، وإلقاء الضوء على حيواتهم في هذا الصدد، ونوصي بإدراج مقرر مستقل عن علمائنا الأفذاذ في الحقل التربوي، يتم تعميمه على الجامعات العربية والإسلامية، ولا بد من تغذية هذه المناهج بالطرق التربوية المستمدة من السلف الصالح، ومزجها بالأساليب التربوية الحديثة، ومن المأمول أن يكون لذلك أبلغ الأثر في تربية الناشئة المسلمين.
- ينبغي إدراج أدب المراسلات والمناظرات في المناهج التعليمية بالمدارس والجامعات، لاسيما في عصر التواصل الاجتماعي الذي نعيش فيه والذي تقوم قنواته على النشر العام والمناظرة في كثير من الأحيان.
- من الضروري اجتماع الهيئات والمؤسسات الإسلامية، ووزارات الأوقاف والتربية في عموم العالم العربي والإسلامي، على إعداد "مدونة تربوية إسلامية" يستند إليها المربون والمعلمون، والعمل على توفير المقومات المادية والبشرية والتنظيمية، وتهيئة

مختلف السبل لتلقي الأجيال الناشئة تربية سلوكية وأخلاقية وعلمية متوازنة في بيئة شبيهة ببيئة أهل القرون الأولى التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية والفضل.

- من الأهمية بمكان تركيز العملية التعليمية في عموم المدارس والجامعات، على أن يكون الأدب سابقًا للتعليم، وأن يكون المربون والمعلمون قدوة في ذلك.
- من الأهمية بمكان اقتران العلم النظري بالتطبيق العملي في المجالات التربوية، وفي جميع مجالات الحياة في أمتنا الإسلامية.
- من الضروري إعداد قاعدة بيانات إلكترونية عن الأعمال المطبوعة والمخطوطة عن الإمام مالك –رحمه الله– وإتاحتها على الإنترنت لإفادة عموم الباحثين منها، وذلك بغرض تعزيز البحث العلمي عن الإمام مالك وسيرته وأعماله.
- ولذلك الغرض أيضًا، من الضروري القيام بالعمل المكثف على تكشيف التراث الخاص بالإمام رحمه الله، ونشر ذلك بكافة السبل، تقريبًا لهذا التراث من عموم الطلاب والمتعلمين.
- نرى ضرورة مواصلة البحث والدراسة العلمية في مجال التربية السلوكية لدى الإمام مالك –رحمه الله– لما في ذلك من فوائد جليلة.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد، مقدمة الجرح والتعديل، القاهرة، دار الاستقامة، 2013م.
- ابن أبي يعلى، أبو الحسين محمد، طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952م.

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية، 2004م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم) وذِكر عيون من أخبارهم وأخبار أصحابهم للتعريف بجلالة أقدارهم، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الرباط، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1967م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: مسعد عبد الحميد محمد السعدني، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م.
- ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث للطبع والنشر، د. ت.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد، صحيح سنن ابن ماجه، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1987م.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1967م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، الشهير بصحيح البخاري، بيروت، دار ابن كثير، 2008م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي، 1983م.
- البيهقي، أبو بكر محمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: أحمد بن إبراهيم أبو العينين، الرياض، دار الفضيلة، 1999م.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، 1989م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، 2002م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م.
- ذوقان عبيدات، وكايد عبد الحق، وعبد الرحمن عدس، البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه، عمان، دار الفكر، 1987م.
- رضا بو شامة، رسالة في قول الإمام مالك (لا أدري) لمحمد بن أحمد البهوتي الحنبلي 1088هـ، مجلة الإصلاح، ع58، 2018م.
- رياض مصطفى شاهين، ومحمد رضوان أبو شعبان، دراسة وتحقيق: لرسالة الإمام مالك بن أنس إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية (غزة)، مج13، ع2، 2005م.
- سالم حسين بننصيرة، رسالة الإمام مالك إلى الليث بن سعد رحمهما الله تعالى، مجلة منار الإسلام، ع525، 2018م.
- سعيد إسماعيل علي، إسهام المدرسة المالكية في الفكر التربوي، المسلم المعاصر، ع107، 2003م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، إسعاف المبطأ برجال الموطأ، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د. ت.
- عادل بن عيد بن ناجي الجهني، التوجيهات التربوية في رسالة الإمام مالك إلى محمد بن مطرف، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم التربوية والاجتماعية، ع3، 2020م.
- عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس إمام دار الهجرة، القاهرة، دار المعارف، 1969م.

- عبد الرافع الفقي، منهج الإمام مالك بن أنس في التعليم والنصح لأولي الأمر في عصره، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، مج13، ع30، 2018م.
- عبد القوي عبد الغني محمد، الجوانب التربوية في حياة الخلفاء الراشدين: دراسة تحليلية، أطروحة دكتواره، جامعة الأزهر، القاهرة، 1994م.
- عبير محمد الجفير، دور الأم في التكوين العلمي لأبنائها في ضوء الفكر التربوي الإسلامي: الإمام مالك بن أنس أنموذجًا، مجلة العلوم التربوية و النفسية، مج7، ع11، 2023م.
- فوزية عثمان عساف الغامدي، التربية الإسلامية في عصر صدر الإسلام: رسول الله والخلفاء الراشدين الأربعة، مجلة كلية التربية، مج30، ع117 2019م.
- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، بيروت، مكتبة الحياة، د. ت.
- محمد أبو زهرة، مالك: حياته وعصره، آراؤه الفقهية، القاهرة، دار الفكر العربي، 2008م.
- محمد العبدة، الفقه العملي عند الإمام مالك، مجلة البيان، س2، ع10 1988م.
- محمد بن عبد الرحمن المغراوي، موسوعة مواقف السلف، القاهرة، المكتبة الإسلامية، 2007م.
- محمد بن مغرم الشهراني، الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2011م.
- محمد علي طاهر، الإمام مالك ابن أنس ومعالم منهجه الفقهي، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ع41 2018م.
- مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1991م.
- مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1417هـ/ 1987م.
- نور الدين لبجيري، وسارة قريمس، الإمام مالك ومنهجه في الدعوة والإرشاد، مجلة الدراسات الإسلامية الجزائر، مج3، ع4، 2014م.
- الهروي، أبو إسماعيل، ذم الكلام وأهله، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1996م.